تجديد التقليـــد

« بهذا العنوان نشرت مجلة المغرب التي تصدر بالرباط
هـــذا المقال فأحببنا أن يطلع أدباؤنا عليه »

في مصر اليوم جماعة من حاملي الأقلام بلغ بها حب التجديد الى حد أنها رأت التقليد الذي يرسف في اغلاله كتاب العربية وشعرائها قد بلي وقدم ، وأنه في حاجة ماسة الى التجديد فراحت تسود أوراق الصحف والمجلات بالنهي عن تقليد العرب، وأسلوب العرب، وتفكير العرب ، وكل ماهو من العرب باختصار ...لالتضع في محله شيئا جديداً مبتكراً ، ولكن لتحاكي الغرب، وأسلوب الغرب، وتفكير الغرب ! وكل ما جاء عن الغرب وان لم تسعر بذلك ، أليس هذا تجديداً... للتقليد؟ أوليست هي جماعة المجددين ؟ وعدم فهمكم لها جعلكم ترمونها بعدم القدرة على التفكير بالعربية وأساليبها الضادية ؛ وكيف تكون غير قادرة على هذا وهي التي تعلمت في أوروبا وقضت شهوراً وأعواماً في « حي مونبارناس » والحي « اللاتيني » ... وهلم جرا .لا. ليس هذا (عجزاً يتظاهر بالقدرة ، وجهلا يتستر بالتحذلق) كما زعم الزيات ، بل سيل التجديد طغى حتى على التقليد وأراد تجديده .

أتدري ماذا تنكر هذه الجماعة على العربية ؟ تنكر عليها أنها خالية من القصـــة والرواية ، ومن « التراجديا والكوميديا والميتولوجيا » وأن أدبها ليس منقسما مثل الأدب الغربي الى « كلاسيكي ورومانتيكي » وأن شعرها ليس منقسما الى « أبيك وليريك » وأن جن شعرائها لم يتأله ، ولم يتخذ « ابولو » : ذلك الاسم العالمي اسما له ، وأن التاريخ العربي الاسلامي ليس منقسما كالتاريخ الغربي الى : « العاديات والقرون الوســطى وعصر النهضة والعصر الحديث والعصر الحاضر »

وصفوة القول أن ذنب العربية هو عدم مجيئها على النمط الغربي ، وقد تكون جديرة بأن تقلدها جماعة المجددين المصريين لو أنها احتوت على مثل تلك الأقسام ، وأخشى مع هذا أن لو كان مثل ذلك للعربية دون الغرب لألفته قديما بالياً ، ويكون مع ذلك الحق معها ؛ لأنها ليست جماعة المبتكرين بل جماعة المجددين، وكل مايهمها هو التجديد لا الابتكار . ولو كان يهمها هذا لأخرجت لنا عوض هذا التقليد المشوه والصخب الفارغ والكلام الأجوف، انتاجا فكريا صحيحاً ، ولست أنكر أنها جاءتنا « بمعجزات » فنية جديدة كل مافيها غربي إلا بعض الفاظ وحروف عربية .

وهنا ضرب الكاتب أمثل برسالة الاستاذ توفيق الحكيم إلى الدكتور طه حسين ، ثم لخص بعض رأي الاستاذ، وعقب عليه بقوله : هذا رأي الكاتب، أما رأيي أنا فهو أن مصر القديمة لولا تلقحها بعناصر أجنبية لما كان لها ادب أو فكر ؛ والتاريخ بالباب وهو أصـــدق مرشد وأعظم برهان ، فلولا الأغريق لما كانت مدرسة الاسكندرية الفلسفية ، ولولا العرب لما كان لمصر أدب أو فكر حديث يذكر ، ولا ذكرت مصر في تاريخ العالم إلا بفنهـــا وهندستها الدينية ؛ والحقيقة أن تلك الجماعة انما تريد ابدال المقلد : ابدال العرب بالغرب ؛ وقد بلغ تطرف صاحب مقال «الرسالة» الى حد أنه رمى الكاتب الوحيد الذي ابتكر جديداً في العربية ولم يحاك أحداً بالتقليد . وكتاب المويلحي « حديث عيسى بن هشام » لايزال قريب العهد ، وما يعنيني الاسلوب اذا كان الـــكتاب غريبا مبتكراً ؟ ولم تنتج مصر بعده جديداً سوى «الأيام» لطه حسين .

ومنذ سنوات كانت جماعة المجددين المصريين تبرق وترعد بمحاسن المدنية الغربية وأفضليتها وسوء الحضارة الشرقية . ولما أراد الله رفع الستار عن مساوىء الاولى وظهر افلاسها بعد الحرب فبرز كتاب أوربيون عظام للتنديد بها وتفضيل الحضارة الشرقية في عدة نواح وخصوصاً الروحية منها ، أخذت هذه الجماعة نفسها تمجدها تقليداً لهؤلاء لاعن عقيدة ، وهذا حد التقليد !

اني لا أنكر على هؤلاء الكتاب حملتهم على التقليد وانما انكر عليهم أولا سعيهم في ابدال المقلد بدون كبير فائدة ، وثانيا انهم بدلا من أن يشتغلوا في ابتكار جديد والعمل على الانتاج الصحيح يضيعون وقتهم في الصخب . أما خلق أدب مصري قومي فهو « مودة » بالية قديمة بالنسبة لمن يتخذ لقب مجدد ؛ على أن الادب الجميل جميل في كل محل وتحت كل شمس وقمر و« الف ليلة وليلة » حجة لذلك .

وأما أن يكون عدم وجود الرواية والقصة سبب فقر أدبنا العربي فهذا غلط ، فلربما جاء فكر عربي عند نضوجه بشيء أفضل من القصة والرواية ، شيء يلائم طباعنا وأدبنا؛ وان كان لابد منهما فسيجيئان في وقتهما حسما تنضج وتختمر الفكرة في عقول أبناء العربية ، ولا يكفي قولنا لهما كونا فيكونان ، لان النبوغ يتدفق من تلقاء نفسه ولا يستخرج ، وكذلك تقسيم الأدب العربي على النمط الغربي ؛ وله تقسيمه الذي لايحتاج الا الى اصلاح وضبط . ويكفي مثلا لفساد تطبيق أقسام التاريخ الأوربي على التاريخ العربي الاسلامي ، أني كنت أقرأ أخيرا كتابا عن تاريخ الأسلام والعرب لكاتب مجدد جرى فيه على الأسلوب الغربي في التقسيم ، جاء فيه : « ... وقد كان آباؤنا يتخبطون في بحر الجهل والتعصب طيلة القرون الوسطى ... » والكل يعلم أن القرون الوسطى في التاريخ العربي هي أزهى عصر المدنية الاسلامية العربية .

وأرجو لمصر أن تخرج من هذا المخاض بخير وعافية بفضل مابقي صالحا سالماً من أبنائها الكرام ، وأن يسفر هذا المخاض عن انتاج صحيح مبتكر ؛ وألا تكتفي جماعة المجددين بابدال المقلد بحسب .

محمد حصار